تتضمن كتب النوازل زخما معرفيا متنوعا وسجلا حافلا لمجالات كثيرة من حياة المجتمعات، فهي تميط اللثام عن كثير من القضايا الفكرية والتشريعية والاجتماعية، وهذا ليس فقط في الجانب الديني والتشريعي والقانوني، بل أنها تسلط الضوء على كثير من دقائق الأمور المتعلقة بحياة الناس اجتماعيا واقتصاديا، كما تطلعنا على مدى الأصالة في تشريع المغرب الإسلامي، ومدى تأثير البيئات فيه، كما تعرفنا على النظم القضائية ودور المفتين والمشاوَرين واسترجاع حقوق المظلومين وتنوير رأي الحاكمين، والتعرف على مختلف الأملاك الحبسية-الوقفية- ودورها في تقديم الدعم لمختلف المنشآت الدينية والتعليمية وحتى الجهاد.

ومن أبرز **خصائص ومميزات كتب النوازل: الواقعية والتجدد وتنوع التأليف**، وبهذا تكون كتب النوازل منجما ذو ثروة معلوماتية متنوعة يستفيد منها المؤرخ وغيره من الباحثين في مجالات عديدة. وتقول المستعربة الفرنسية **رايل آريه:**" تشكل هذه الفتاوى أهمية عظمى ليس فقط في مجال الفقه في الأندلس، إنما أيضا في غزارة المعلومات التي تقدمها لنا حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيه، هذه المعلومات تكاد تخلو منها-تقريبا- كتب المؤرخين"[1].

ومن خلال **نوازل ابن سهل** المتوفى سنة 486هـ/1036م نستطيع فهم ما كان يجري داخل المجتمع، وتأتي أهمية نوازله في أنه كان شاهد عيان على تلك القضايا الاجتماعية والقانونية والتاريخية، كما تضمنت وثائق بالغة الأهمية عن أحكام القضاء الجنائي في الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وتسلط الضوء على التاريخ الاجتماعي للأندلس في تلك الفترة، وعلى الإجراءات وأسلوب البحث القانوني والتحري الذي كان يقوم به القاضي قبل الفصل في القضايا، كما تضمنت نوازله أيضا تحقيق جرائم مثل القتل العمد والاغتصاب والضرب والجرح المفضي إلى الموت وغيرها.

وقد استفاد من هذه النوازل **ليفي بروفينسال Levi Provençal**، حينما رجع إليها في كثير من المواضع التي كتبت عن نظم الحكم في الأندلس، وعن حياة المجتمع الأندلسي وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية[2]. وعليه فالنازلة تعكس حالة المجتمع بمميزاته وحتى المشاكل التي يعاني منها، كما أن غنى مادتها المعرفية تكشف لنا عن ما فقدته الحوليات التاريخية في متونها، فالفقه ليس مجرد نظرية فحسب، بل هو فقه للحياة، كما **يقول ابن سهل "التجربة أصل كل فن"**.

فمنذ أن وصل المذهب المالكي إلى الغرب الإسلامي فلم يزل أهله عليه، والفقه المالكي فقه علمي عملي يعتد بالواقع ويأخذ بأعراف الناس ويستند إلى المصالح المرسلة، والتي هي من أجلّ قواعده، وهكذا انطلق الفقه الأندلسي خاصة يبدع في مجالات المعرفة، كما أطلق لنفسه حرية الفكر والبحث.

ولقد تتبع فقهاء الأندلس أحوال تلك الفترة واستنبطوا لها الأحكام الملائمة لظروفها ومستواها، وهذا يبين الكشف عن دقائق الأحداث والأوضاع ليس هذا فحسب، بل أنهم بينوا بتقصيهم للجزئيات أن تجاوزوا حدود زمانهم برؤية ثاقبة نحو المستقبل.

ويوضح **خوان مارتوس كيصادا Juan Martos Quesada** :"أن الأدب القانوني الأندلسي يعد بدرجة أولى أدبا تطبيقيا **براغماتيا** يروم حول مشاكل معينة، وإيجاد حلول ملموسة ودقيقة"،وهذا ما بينته كتب النوازل خاصة نوازل ابن سهل وكتاب المعيار للونشريسي، إضافة إلى رسائل الحسبة والتي تعد مرجعا تطبيقيا لمراقبي الأسواق كدليل للقيام بالمهمة، من منظور أن القانون الإسلامي **فقه وشريعة**، وبذلك تشكل كتب النوازل مصدرا للدراسات التاريخية والقانونية، وتكشف كثيرا من الخبايا والخفايا في تاريخ الغرب الإسلامي.

بالإضافة إلى ذلك نجد **نوازل ابن الحاج** محمد بن عبد الله بن خلف بن إبراهيم التيجيبي المتوفى سنة 529هـ/1134م، والذي عاصر حكم المرابطين تميزت فتواه بالتنوع، كما أنه عاصر ابن رشد الجد 450-520هـ/1085-1126م، حيث يورد نصوصا بينت مظهرا هاما من مظاهر التحولات الكبرى في كيفية تعامل السياسي والفقيه مع الميراث المالي والعقاري لملوك الطوائف، وهي من القضايا الخطيرة أثناء قيام نظام جديد تتجدد معه العقود والوثائق، وقد كان ابن الحاج واضحا مع حق بيت مال المسلمين في أموال الحكام المتغلبين، وقد أدت فتوى ابن رشد الجد في هذا الأمر إلى محنة كبرى انتصر فيها السياسي على الحكم الشرعي.

ومن بين النصوص النادرة هناك نص هام يشير إلى قضايا الجواري والإماء والعبيد والمحاكم في مدن المرابطين، حيث أظهر ابن الحاج-حسّن الفتوى- الذي اكتسبه من خلال تعامله مع واقعه وأفاد من خلال فتواه الخاصة بالملكية العقارية وموضع البساتين والنزاعات بين الأقارب ومسائل المياه وخاصة الفلاحة.

وبذلك تظهر كتب النوازل وأهميتها في كتابة تاريخ الغرب الإسلامي الديني والثقافي والاقتصادي، وكان لاكتشاف مختلف كتب النوازل -لابن الحاج وابن رشد والشعبي المالقي والبرزلي وغيرهم- مادة معرفية غنية، إذ أن نوازل ابن الحاج بينت زيف ادعاءات المدرسة الاستعمارية حول مسائل القبيلة والتراتب الاجتماعي(الطبقية، التفاوت)، كما كشفت الملكيات العقارية والنزاعات في الريف الأندلسي والمغربي، وإعادة النظر في نظرية علماء الأنتروبولوجيا وادعاءات أن نهضة الأندلس قامت على الميراث الروماني حول تقنيات السقي وتوزيع المياه، كما بينت نوازله طرق غير شرعية ساهمت في زيادة الملكيات الفردية كالبيع بالغبن والمحسوبية خاصة في أواخر العصر المرابطي، وكذلك الاغتصاب والسطو والاستحواذ بالقوة وغيرها من النوازل، مثلا كغياب أحد أصحاب الأرض لمدة طويلة وعند عودته يجد أرضه بحوزة آخر، وهذا خاصة عندما لم يتم تقسيم الميراث بين الورثة، أو ربما الاستيلاء على العقار أو الأرض أثناء غياب صاحبها لمدة طويلة .

ومن خلال نوازل ابن الحاج يمكن للباحثين الاستفادة من مكنونها في مختلف جوانب الحياة بالغرب الإسلامي، فمثلا في **الجانب الاقتصادي** يمكن معرفة أشكال العلاقة بين المزارع وصاحب الأرض وهو ما يعرف **بالمغارسة** وهي أن يستأجر مالك الأرض فلاحا يتقن غراسة الأشجار لمدة يتفقان عليها بشروط.

ومن **الناحية الاجتماعية** تشير النوازل إلى عدد كبير من النصارى وصلوا إلى مكانة مرموقة، وحتى أن بعضهم كسب ثروة بطرق غير مشروعة في عصر ملوك الطوائف وحافظ عليها باحتمائه وراء أصحاب النفوذ والجاه، بل أصبحوا تحت رعاية الدولة خاصة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين476-537هـ/1083-1143م الذي شملهم برعايته، بالإضافة أن نوازل ابن الحاج أشارت إلى اليهود ودورهم في الحياة، وفيما يخص طبقة الحكام والأعيان يبين انتشار ظاهرة استغلال النفوذ واستعمال السلطة وغيرها من الآفات، حتى أن بعضهم يُرغم الأفراد على بيع ممتلكاتهم، بل أن بعضهم زاد من ثروته عن طريق القرض بالفائدة. ومن هنا يتضح لنا أن كتب النوازل تضمنت أحداثا تاريخية وفقهية واجتماعية واقتصادية، قد لا تتوفر في كتب التاريخ، وهذا لأن النوازل تعتبر مرآة عاكسة لواقع المجتمع[3].

وأما فيما يخص **نوازل الونشريسي** أحمد بن يحي بن محمد الونشريسي التلمساني المتوفى سنة 914هـ/1508-1509م في كتابه المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، قد اعتمد في فتواه التي ذكرها في كتابه على مصنفات الفقه المالكي، كما اعتمد على نوازل أبي القاسم البرزلي القيرواني المتوفى 844هـ/1440-1441م، حيث يضم المعيار مجموعة كبيرة من النوازل والفتاوى الفقهية التي تعبر بصدق عن واقع الحياة اليومية في المجتمع بالغرب الإسلامي، والملاحظ أن مختلف الأحداث التي عاشها سكان المنطقة أنها ذات صبغة محلية، مما دفع بالعلماء والفقهاء والقضاة إلى الاجتهاد واستنباط الأحكام وإيجاد الفتوى الشرعية التي تتوافق مع **القرآن والسنة والإجماع والقياس** على ضوء المذهب المالكي وهو المذهب السائد.

ويضم كتاب المعيار جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ذات القيمة، فهي نادرا ما توجد في المصادر التاريخية، والتي لها علاقة بمختلف جوانب الحياة في الغرب الإسلامي، فهناك كثير من الإشارات عن العادات والتقاليد والأعراف والحياة الأسرية وغيرها من الاحتفالات والأعياد واللباس والأطعمة، وعن النظم الاقتصادية ومراكز العلم والشخصيات ذات المكانة العلمية، بالإضافة إلى معالم الحياة الدينية في المغرب والأندلس.

وعليه فكتب النوازل من المصادر القيّمة لما تتضمنه من مادة معرفية متنوعة تتعلق بجوانب الحياة المختلفة لمجتمع الغرب الإسلامي. فالنازلة بحد ذاتها قضية وقعت فرفعها صاحبها لأهل الفتوى وعادة ما تذكر حيثياتها ويتم الفصل فيها فهي مرآة تعكس الواقع ومشاكل مجتمعه.

وقد جذبت كتب النوازل كثير من المستشرقين الأسبان ومنهم لوبيث أورتيث Lopez Ortiz وسلفادور بيلا Salvador Villa، وحتى الفرنسيين أمثال ليفي بروفينسال، ومن خلال ذلك تمكنوا من التعرف على بعض جوانب حياة مجتمع الغرب الإسلامي.

-الحياة الاجتماعية: تتضح من نوازل النكاح التي أوردها الونشريسي في المعيار العديد من الحقائق المرتبطة بالزواج وحياة الأسرة في المغرب الإسلامي، حيث يذكر لنا ما تقوم به الخاطبة من دور في عملية الخطوبة وعقد الزيجات، حيث أنها تمهد للاتفاق بين أهل العروسين ثم يذهب أهل الزوج إلى بيت العروس من أجل الاتفاق النهائي. ويذكر لنا أن صداق الزوجة في المغرب الإسلامي ينقسم إلى معجل ويسمى النقد ومؤجل-مؤخر- كما أشارت إحدى النوازل إلى بعض العادات المنتشرة بمدينة قفصة بإفريقية أن الصداق المعجل يمكن للزوج أن يشتري به كسوة وحلي ويخبرهم بقيمته، ويحسب ذلك من الصداق-النقد المعجل- وكان أيضا من العادات أن يهادي العريس عروسه في الأعياد والمناسبات بهدية لا تعدو أن تكون حناء وصابون وفاكهة، ثم يعقد القران في أحد المساجد علي يد القاضي أو من أُسْند له الأمر في ذلك، أما الأماكن البعيدة عن الحواضر كالقرى فإمام المسجد هو الذي يتولى الأمر دون إذن من القاضي.

ومن المشاكل الأسرية التي كانت تنشأ من حين لآخر هي الزيارة المتكررة للزوجة لبيت أهلها وعدم قبول الزوج بذلك، ولكن الفتوى تقول بوجوب زيارة الزوجة لوالديها وإخوتها وتكرار ذلك ما لم يصل إلى حد الإكثار.

-الحياة الاقتصادية: من خلال النوازل والفتاوى تفيدنا إحدى النوازل ما يتعلق بطريقة الري والنظام المتبع بالغرب الإسلامي، حيث أن السقي في تلمسان كان منظما تنظيما دقيقا ذا فعالية، بحيث يتعاون المزارعون فيما بينهم على سقي الأرض بإتباع طريقة الترتيب فمنهم من كان يسقي نهارا ومنهم من يسقي ليلا وبين هذا وذلك مجموعات أخرى .

ويذكر الونشريسي أن جرت العادة في بلاد الغرب الإسلامي أن الماء-العين أو الساقية- التي يستعملها القوم إن كانت لهم جميعا فهي على الحظوظ التي يمتلكونها، لأن من تملّك حظا فهو مال من أمواله، وإن كان الماء من الأودية لا ملك لأحد عليه فالأولى بالسقي الأعلى فالأعلى ثم الأسفل[4].